الرؤية الإسرائيليّة لصعود الإسلام السياسيّ في العالم العربيّ

□ مهنّد مصطفى

تختلف الرؤية الإسرائيليّة لصعود الإسلام السياسيّ في أعقاب الثورات العربيّة عن الرؤية الغربيّة عمومًا، والأميركيّة خصوصًا. وهذا التمايز ظهر أيضًا في التعاطي الإسرائيليّ مع هذه الثورات، وفي تقدير مستقبلها ومكان إسرائيل في المنطقة بعدها. لذا، لا بدَّ من مدخلٍ مقتضبٍ عن الرؤية الإسرائيليّة للثورات المذكورة ومستقبلها.

بدأ الاهتمامُ الإسرائيليّ بالثورات العربيّة انطلاقًا من مصر، فلم ينتبه الإسرائيليّون إلى أهميّة الحدث في تونس، وتعاملوا معه كحدثٍ منفردٍ في السياق العربيّ لن ينعكسَ على المحيط الجغرافيّ. وذلك نابعٌ أيضًا من مكانة تونس في المؤسّسة الأكاديميّة الإسرائيليّة ومراكز الأبحاث؛ فهناك قلّةٌ قليلةٌ من المتخصّصين في الشأن التونسيّ في إسرائيل، وقليلةٌ هي الأبحاثُ الإسرائيليّة التي تهتمُّ بالحالة التونسيّة، لكون تونس بعيدةً جغرافيًّا عن إسرائيل وغير فاعلةٍ في النظام السياسيّ العربيّ ولا تأثيرَ مباشرًا لها في إسرائيل، كما أنّ اليهودَ المتبقّين في تونس لا يتجاوزون المئات.

شكّلت الثورةُ المصريّة نقطةَ تحوّلٍ في الاهتمام الإسرائيليّ بما يحدث في العالم العربيّ. ففي بداية الأحداث اتّجهت التقديراتُ الإسرائيليّة إلى أنّ النظام المصريّ قادرٌ على مواجهة الاحتجاجات، اعتمادًا على نجاحه في أحداثٍ سابقة. ثم انشغلتْ إسرائيل بتوقّع صعودِ التيار الإسلاميّ بعد الثورة. حتى إذا سقط مبارك انصبَّ الاهتمامُ الإسرائيليُّ على ذلك التيّار. أحدُ الباحثين المعروفين بتوجّههم الاستشراقيّ العنصريّ، ويُدعى دان شفتان، ويشغل منصبَ مدير مركز دراسات الأمن القوميّ في جامعة حيفا، ادّعى أنّ التعاطي الغربيّ مع المنطقة العربيّة بعد الثورات جنونٌ، لأنّ الغربَ لا يفهم العربَ كما يفهمهم الإسرائيليّون.

على أيّة حالٍ، لا يخلو تعاملُ إسرائيل مع صعود التيار الإسلاميّ من وقع التجارب التاريخيّة. فقد فقدتْ إسرائيلُ دولتين إقليميّتين مركزيّتين بسبب صعودِ ذلك التيّار فيهما:

ـ إيران التي تحوّلتْ من دولةٍ حليفةٍ لإسرائيل حتى نهاية سبعينيّات القرن الماضي إلى دولةٍ تُعتبَرُ اليوم خطرًا وجوديًّا عليها (بحسب نتنياهو)؛

ـ تركيا التي كانت، على مدى عقود، حليفًا إستراتيجيًّا لإسرائيل، إلا

أنّ صعـودَ الإسلام السياسـيّ أدّى إلى تآكل هذا التحالف. ولا يخفي الإسرائيليّـون أنّ ذلك لا ينبع فقط من خلافاتٍ سياسيّةٍ طرأتْ على علاقات البلدين في السنـوات الأخيرة، بل بسبب إيديولوجيّةِ حزبِ العدالة والتنمية وتوجّهه الإسلاميّ.

تنظـر إسرائيلُ بخـوفٍ إلى صعود التيار الإسلامـيّ في مصر، التي كانـت الحليـفَ الإقليميَّ القـويَّ المتبقّي لها فـي المنطقة، وتخشى أن يتكـرّرَ السيناريو الإيرانيُّ ولـو بصورته التركيّـة الأكثر اعتدالاً. ورغـم الأهميّة التي كانت لإيران وتركيا في المنظومة الإستراتيجيّة التاريخيّـة التـي أسّسها دايفيد بـن غوريون، فإنّ مصـر تُعتبر دولةً حدوديّـةً، وخاضت حروبًا سابقةً مع إسرائيـل، وتربطها بها قضايا مشتركةٌ مثل القضيّة الفلسطينيّة ومسألة قطاع غزّة وقناة السويس. وهـذا ما يجعلُهـا أكثر أهميّةً فـي الفكر الإستراتيجـيِّ الإسرائيليّ، ويجعل التخوّفَ من فقدانها بسبب صعود التيّار الإسلاميّ أكثر حدّةً من فقدان تركيا أو إيران.

في مقالةٍ في صحيفة **هآرتس** في كانون الأول ٢٠١١ يقولُ آري شفيط، وهو كاتبٌ تحظى مقالاتُه باهتمامٍ كبيرٍ في الشارع الإسرائيليّ:

«بعـد عشـرة أشهر على بـدء الثـورات العربيّـة الكبيـرة، الصورةُ أصبحـتْ واضحةً: لقـد انتصر الله. اختفى شبـابُ الفوغل. اختفى المثقّفـون الليبراليّـون. اختفـى أولئـك الذيـن وعدونـا بالمساواة والأخـوّة والحريّة... لـم نحصل على الثـورة الأميركيّة لعام ١٧٧٦، ولا علـى الثورة الفرنسيّة لعام ١٧٨٩، ولا حتـى على الثورة في شرق أوروبـا لعام ١٩٨٩. الثورةُ العربيّة عـام ٢٠١١ هي ثورةٌ دينيّةٌ. القوّة التـي تغيّر الديكتاتوريّـات العلمانيّة للضبّاط العـرب الفاسدين هي الإسلام. لا يوجدُ فـي الأفق مارتين لوثر كينغ، ولا المهاتما غاندي. إنّ النتيجـة التـي حصلنا عليهـا بسبب طعنة السكّيـن التي غرسها أوباما في ظهر حسني مبارك كانت واحدةً ووحيدةً: إخراج العفريت الدينـيّ من الزجاجة الشرق أوسطيّـة. وتمّ ذلك تحت رعاية الغرب المنهار. رجع الله، الله يسيطر، الله يستر.»

يعبّـرُ شفيـط في مقاله عـن التصـوّر الإسرائيليّ، الـذي يتكوّنُ من الادّعـاءات الآتيـة: أ) أنّ الثـورات العربيّـة بـدأتْ علمانيّـةً وأتـت بنتائـجَ إسلاميّـة، أي صعود الإسـلام السياسـيّ. ب) أنّ الغربَ لا يفهـم الشرقَ الأوسط جيّدًا، وهو واهمٌ مـن قدرته على إدارة شؤون المنطقة العربيّـة. ج) أنّ هذه الثورات ستكـون بنتيجتها الإسلاميّة خطرًا على إسرائيل ومكانتها في المنطقة. لن نقومَ في هذه المقالة بنقاش هذه الادّعاءات، بل نحاول عرضَ الرؤية الإسرائيليّة لصعود القـوى الإسلاميّة في المنطقة العربيّة ـ وهي رؤية ما زالت تتّصفُ، كمـا سنـرى، بالسطحيّة والثنائيّـة المطلقة والبعد عـن رؤية الواقع بمركّباته المختلفة.

فـي مقالةٍ أخـرى فـي **هآرتس**، بعنـوان «الشعب يريـد الإسلام،» يشيـرُ شلومو أڤينيري، وهـو أكاديميٌّ شغل مناصـبَ سياسيّةً رفيعةً فـي السلك الدبلوماسيِّ الإسرائيليّ، إلـى أنّ الأنظمة العربيّة فشلتْ في فرضِ منظومةٍ علمانيّةٍ حداثيّةٍ على المجتمـع العربيِّ التقليديّ والقبلـيّ. لا يخلـو تحليلُ أڤينيري، من السطحيّـة التي ميّزت الكثيرَ مـن المحلّليـن الإسرائيليّين. فهو يدّعـي أنّ الأنظمـة العربيّة (في مصرَ واليمن مثلاً) كانت تحمـل مشروعًا علمانيًّا حداثيًّا، وأنّ هذا المشـروعَ انتهى مـع انهيار النُّظم وصعـود الإسـلام السياسيّ. أما الواقع فهو أنّ الأنظمـة السلطويّة العربيّة لم تكن علمانيّةً بل هجينة بين مركّباتٍ علمانيّةٍ ودينيّةٍ وقبليّةٍ وعائليّة.

يمثّـلُ هذان النموذجـان من المقـالات الرؤيـةَ الإسرائيليّةَ لصعود الإسـلام السياسيّ. وقد عبّر عن ذلك بشكلٍ رسميٍّ بنيامين نتنياهو في الكنيست، قائلاً إنّ الثورات العربيّة لم تنتجْ ديمقراطيّةً بل أنتجتْ أسلمـةً في الـدول العربيّة. لكنْ في حين باشـرت الولاياتُ المتحدة سلسلـةَ لقاءاتٍ مكثّفةٍ مع قياداتٍ إخوانيّة، معتبرةً أنه يمكنُ التعامل مع مصر بقيادة التيّار الإسلاميّ، لا بل معتقدةً أنّ وجودَه في السلطة سيجعلـه أكثـرَ براغماتيّـةً وانفتاحًا، مـا زالت القيـادةُ الإسرائيليّة تتعامـلُ مع مصر وكأنها العسكر والمجلسُ العسكريُّ. وعليه، فإنها ما فتئتْ تذكّر بأنّ هنـاك ضماناتٍ من المجلس العسكريِّ بالحفاظ علـى اتّفـاق السلام بيـن البلدين. لا تـزال إسرائيـلُ، إذن، تتعاملُ مـع مصر بمنطـق النظام السلطـوي القديم، بمعنـى أنّ هناك قوّةً غيـر ديمقراطيّـة وغيـر منتخبةٍ تحكـم مصر. وحتـى الآن لم نجد تعاطيًـا إسرائيليًّا جديًّـا مع صعود التيّار الإسلامـيّ في الانتخابات التشريعيّـة، بل كلُّ مـا تأمله إسرائيلُ على المستـوى الرسميّ هو ألاّ يتضـرّرَ اتفـاقُ السلام بين البلديـن نتيجةً للتحـوّلات السياسيّة في الدولة. أما التعاطي الصحافيّ والأكاديميّ الإسرائيليّ مع مصر بعد الثـورة، فيَغلب عليه التمنّي أكثر من التقدير: هكذا يتمُّ الحديثُ عن حـربٍ أهليّةٍ في كلّ حركة احتجاجٍ عنيفة، وعن تدهورِ الأوضاع، إلى آخره. والمقصود بـ «التمنّي» هو أن يطولَ حكمُ العسكر وتتعثّرَ عمليّةُ التحوّل الديمقراطيّ وصعودِ الإسلام السياسيّ إلى الحكم.

يتعامل الكثيـرُ من الكتابات في إسرائيل مـع الإسلام السياسيِّ من منظـارٍ واحدٍ: إنه «الجهاد ضـدَّ اليهود،» مـن دون رؤية الفارق بين مواقف التيّارات الإسلاميّـة المختلفة. وهذا لا يعني أنّ هناك غيابًا لأصـواتٍ مختلفـةٍ فـي إسرائيـل (فهناك مـن يطالـبُ بالتعامل مع الحركات الإسلاميّة بما فيها «حماس» بعد المصالحة الفلسطينيّة)؛ إلا أنّ هاجسَ الخوف والشكِّ هـو السائدُ في الأروقـة الإسرائيليّة. ولكنْ لا بدَّ من القول إنّ إسرائيل اليوم تهتمُّ بصعود التيّار الإسلاميّ فـي مصر أكثر من صعوده في دولٍ أخـرى كتونس أو المغرب، حيث حصل التيّـارُ الإسلاميُّ على أكثريّةٍ في مقاعد البرلمان وشكّل فيها الحكومـات. الاهتمامُ الإسرائيلـيُّ هو باتجاه مصـر، إذن، وتحاول إسرائيل الحفاظَ على اتفاق السلام الذي تعتبره «كنزًا إستراتيجيًّا» حتى فـي ظلِّ الحكـم الإسلاميِّ لمصر. وقـد اتّبعـتْ إسرائيلُ منذ سقـوط مبـارك سياسـةَ ضبـط النفس فـي التعامل مع مصـر، أيْ سياسةَ عدم الانجرار وراء التصعيد أو التصعيد المتبادل.

فعندمـا قطعت الشركةُ الحكوميّةُ المصريّـةُ إمدادَ الغاز لإسرائيل، وألغت اتفاقَ الغاز، أصدرتْ إسرائيل بيانًا رسميًّا أكّدتْ فيه أنّ إلغاءَ

آري شـفيط: بعد عشرة أشهر على الثورة العربية الكبيرة، الصـورة أصـبحت واضـحة: لقد انتصـر الله. اختفى شباب الغوغل. اختفى المثقفون الليبراليون!

الاتّفاقيّـة هو نتيجة لخـلاف تجاريّ بين الشركـة المصريّة وشركة EMG التـي تشتري الغازَ من مصر وتصـدّرُه إلى إسرائيل، وليست لـه أيُّ أبعـادٍ سياسيّة. وخرج نتنياهـو شخصيًّا وأكّد هـذا التوجّه. حـدث ذلك علـى الرغم مـن أنّ بنيامين بن اليعيـزر، الذي هندس هـذا الاتفاقَ عندما شغلَ منصبَ وزير الطاقـة وكان صديقًا حميمًا لمبـارك، اعتبر أنَّ إلغاءَ الاتفاقيّة يفـرّغُ اتفاقَ السلام من مضمونه لأنَّ الأولـى كانت النتاجَ العمليَّ والرمزيَّ الوحيد للثاني! كما مارستْ إسرائيلُ سياسةَ ضبط النفس في أحداث السفارة الإسرائيليّة؛ ففي حين اتّهمـت المتظاهرين بأنّهـم كانوا نشطـاء إسلاميّين، شكرت المجلسَ العسكـريّ على إنقـاذ عمّال السفارة، وذلـك حفاظًا على السلام بين البلدين في حدّه الأدنى.

التعامل الأمنيّ مع صعود الإسلام السياسيّ

ظهـر التعاملُ الإسرائيليُّ الأمنيُّ الضيّقُ مـع صعود التيّار الإسلاميّ فـي الحالة الليبيّة بشكل كبير. ونقصد بالتعامل الأمنيّ الضيّق ذلك الـذي يرصد الانعكاسـات الأمنيّة القصيرةَ الأمـد من جهة، وذات الصلـة المباشرة بالأمـنَ اليوميّ الإسرائيليّ من جهـةٍ أخرى. فقد انصـبَّ الاهتمامُ الإسرائيليُّ في الحالة الليبيّة على مسألة الترسانة العسكريّـة، خوفًـا مـن الفوضـى التـي ستسـود ليبيا خـلال الثورة وبعدهـا، فتننقـل الأسلحـةُ المتطوّرة إلـى غزّة (لا بدَّ مـن التذكير هنـا بأنّ إسرائيل أحبطت الكثيرَ من محاولات نقل السلاح إلى غزّة عن طريق السودان قبل الثـورات العربيّة، قاصفةً بطيرانهَا الحربيّ قوافلَ السلاح).

الجانـب الأمنـيُّ الضيّق الآخر فـي الحالة الليبيّة ــ ولكنـه ذو صلةٍ إستراتيجيّةٍ ــ هو التقديراتُ الإسرائيليّة أنّ «القاعدة» كوّنتْ قواعدَ فـي ليبيا؛ وهذا قـد يعزّزها أو يعـزّز الحركات الجهاديّـةَ في غزّة، ويقوّي التواصـلَ بين مراكز «القاعدة» المختلفـة في شمال إفريقيا مرورًا بسيناء وانتهاءً بغـزّة. وتخشى إسرائيلُ أن يؤدّي هذا المحورُ مـن حركة القاعـدة و«الجهاد العالمـيّ» إلى زعزعـة الاستقرار في المنطقـة وفي سينـاء، الأمرُ الذي قـد ينعكس سلبًـا على العلاقات المصريّة ـ الإسرائيليّة.

هناك مـن يعتقدُ أنّ الثورات العربيّةَ سـوف تُضعفُ حركةَ القاعدة، علـى عكس مـا يفكّـرُ الأمنيّـون الإسرائيليّـون. تسفـي برئيل، وهو متخصّـصٌ في الشؤون الشـرق أوسطيّة ويتميّز بأنـه يحملُ مواقفَ معتدلةً وغير شعبويّةٍ في تعاطيه مع الشؤون العربيّة، يكتب في تقريرٍ له بعد عامٍ على اغتيال بن لادن:

«حـدث اغتيالُ بـن لادن في ذروة الثـورات في الـدول العربيّة، وتمَّ إسقاطُ الأنظمة في جزءٍ منها، وفي بعضها الآخر صعدَ الإسلاميّون إلـى الحكـم. كلُّ ذلك قـد يوصلنـا إلى النتيجـة أنّ الربيـع العربيَّ بالذات، أكثرَ من اغتيال بن لادن، ساهمَ على الأقلِّ في تغييب العامل الإيديولوجيّ كأحد أهمِّ العوامل في نشاط القاعدة.»

ويقصـد برئيل أنّ إسقاط الأنظمة وصعـود التيّار الإسلاميّ أسقطا المبـرّرَ الإيديولوجيّ لنشاط القاعدة في المنطقة، ومن ثمّة سيؤدّي إلـى تخفيف حـدّة التهديد الذي تمثّلـه هذه الحركة علـى استقرار المنطقة، أكثر ممّا قد يساهمُ اغتيال بن لادن. ويضيف:

«لقد حظيـتْ حركةُ القاعـدة بتأييـدٍ جماهيريٍّ في الـدول العربيّة ساعدتْها في نشاطاتهـا. وجزءٌ من ذلك نابعٌ من أنّ الجمهورَ اعتبر أنّ صـراع القاعـدة ضـدّ الأنظمـة حجّـةٌ كافيـةٌ ـ ليـس بالضرورة لأسبـابٍ دينيّـةٍ ــ تبـرّر الأعمـالَ الإرهابيّة. ولكـنْ عندمـا اتّضح مـدى النجاح السياسيّ للحـركات الدينيّة، مثـل النهضة في تونس، والإخـوان المسلميـن والسلفيّين فـي مصر؛ وعندما بـدأ الاحتجاجُ المدنيُّ العنيف ضدَّ نظام علي عبد الله صالح؛ رأت الحركةُ في ذلك إنجازًا، لا بل ادّعت أنّها شريكةٌ فيه.»

ولكـنّ برئيل لم يتطرّقْ إلى مكانة إسرائيل في هذه التحوّلات. فربّما ساهمتْ هذه التحوّلاتُ في لفت انتباه القاعدة إلى إسرائيل أكثر من ذي قبـل بعد أن فقـدتْ أرضيّتَها الإيديولوجيّة التـي تعطيها شرعيّةَ العمـل في الدول العربيّة، وخصوصًا إذا تطوّرت الأحداثُ في سورية وسقط النظامُ هناك.

أمّ الفحم ـ فلسطين

مهنّد مصطفى
محاضر وباحث فلسطينيّ.